

الهوية المنسجمة والهوية المتشظية في نص "سيمرغ" لمحمد ديب.

أ. عزيز نعمان

جامعة تيزي وزو

يلمس القارئ حضورا مضطربا لموضوع الهوية، عبر نصوص "سيمرغ"* المتداخلة، ويتجلى ذلك الاضطراب على أكثر من صعيد: فعلى صعيد لغوي يمكن ملاحظة مقدار استعمال ديب لكلمة "جزائر" كعلامة لغوية كاشفة عن أحد معالم هويته كشخص وأديب. وعلى صعيد دلالي تبدو الصورة التي رسمها عن الهوية شديدة التحول والتغير. أما على صعيد آخر، هو الصعيد المعرفي (الفلسفي)، فيبدو حيال تصورين متعارضين: تصور يبدو فيه باحثا عن هوية منسجمة موصلة إلى معالم ثابتة تتحدد في علاقتها مع انتماءاته الفردية والاجتماعية والثقافية والوطنية والعرقية والإنسانية، وتصور آخر يعرض فيه ما آلت إليه هوية اليوم من تهديم وتفكيك جراء تيارات فكرية جعلت "الذات الإنسانية- على حد قول لوهمان (Luhman) - تفقد كل وجود فعلي"¹ لها. ومن شأن التعارض الحاصل بين هذين التصورين أن يعكس تعارضا آخر على صعيد الممارسة الأدبية عند ديب قوامه مقابلة- في عمله هذا - ما هو حدائثي بما هو ما بعد حدائثي، وهي مقابلة تتيح المجال للقارئ في أن يتساءل عن مظاهر ذلك الجدل الذي أراده ديب "نموذجا لحالة تفتت الإنسانية وتناثرها شظايا"²، والذي أراد أن يمنحنا من خلال "سيمرغ" نموذجا "للأدب الذي يقاوم بطريقته"³ ويرافع لصالح إنسانية باحثة عن ذاتها.

سنكتفي في رصد مظاهر ذلك الجدل الفكري الذي طال فكرة الهوية بالوقوف عند طرفي ثنائية (الانسجام والتشظي) باعتبار ما فيهما من عناصر تمت بصلة إلى معالم هوية حدائثة وما بعد حدائثة، وفق هذا الترتيب.

• الهوية المنسجمة:

كشف ديب ما من مرة عن هويته التي لن يصعب على القارئ تحديد أبرز معالمها استنادا إلى نسبة الحضور الملحوظة لكلمة "جزائر" في مجموع نصوصه. وهي الكلمة التي اقترنت بدلالة الانتماء الشخصي: "في جزائري مسقط رأسي"⁴، وكذا بدلالة الانتماء الأدبي: "ككتاب جزائريين"⁵، "الأدب الجزائري"⁶. ففي مثل هذه العينة، وفي عينات أخرى، يظهر تمسك ديب القوي بالمبدأ الحدائثي القائل بضرورة "الامتثال للهوية"⁷، حيث يطلعنا بشكل صريح على بلده، لكنه - وهو يفعل ذلك - يلمح إلى مشاعر الحنين والبعد والإقصاء المتولدة بداخله وهو يسعى للتأكيد على هوية⁸ قائمة على أسس ثابتة تتحدد بالرجوع إلى التركيبة الاجتماعية والثقافية واللغوية لوطنه الجزائر. وتتحدد تلك المشاعر وفق سياق الاغتراب الذي تدور حوله معظم نصوص "سيمرغ"، ويأتي ذلك من منطلق كون الاغتراب ظاهرة إنسانية معبرة بالدرجة الأولى عن "المنطقة العتمة في الذات الإنسانية"⁹. وهو ما يفتح المجال لأكثر التساؤلات وأكبرها والتي يأمل ديب نفسه أن تلقى إجابات عند جمهور الشباب الكاتب باللغة العربية على وجه الخصوص، إذ يقول في حوار* جمعه مع الصحفي ع. حميدة من يومية "اليوم" الجزائرية: "(...) إن غربتي عن بلدي هي غربة متعددة، غربة يصعب تغطية جراحها، لكن أمني يبقى كبيرا في الجيل الجديد، الجيل الذي يكتب بالعربية"¹⁰.

وليس المكان وحده هو ما يحدد معالم غربة ديب الإنسان والأديب بل إن لهاجس الزمن (الطفولة والشيخوخة) دخلا في ذلك، فيبدو - نتيجة ذلك - كمن يستدعي الذات في "مكان الغياب"¹¹ والتلاشي المستمرين قصد مكالمتها وإشباعها

بذكريات الطفولة ورموز الكبر، وهو ما يوافق توجه جان جاك روسو (Jean Jacques Rousseau) ذا الطبيعة الحدائثة في فلسفته الاجتماعية، والذي ينص على "ضرورة بحث الكائن البشري عن تحقيق ذاته"¹²، وهي الفكرة التي وجدنا لها صدى في نصوص "سيمرغ" فيما بينها.

مقابل هذه الهوية الثابتة المعلن عنها في القسم الأكبر من نصوص "سيمرغ" نلمس في مواطن أخرى من الكتاب صورة أخرى لها تبدو شديدة التحول والتغير، وهو ما يمكن أن نلخصه في مشهدي النهر الجاري وظلال الغيوم الذي أحسن ديب من خلالهما كيف يصف الطابع الحركي والخاصية الجدلية لهوية الإنسان في علاقتها مع الذات. ولتقريب تلك الميزة، التي تبدو بدورها قريبة من الجدلية الحدائثة القاضية بارتباط الهوية بالذات، نورد فيما يلي الصورتين التشبيهيتين اللتين وردتا في نص "سياجات المعنى" دون أن تفصل بينهما مسافة كبيرة، وهو ما يتيح لنا افتراض كون كل منهما صيغة شارحة للأخرى ومكملة لها:

"لا شيء أقل ضمانا من صورة هويتنا. ولا شيء أقل استقرارا وثباتا وكذا استمرارية وقمعا من تلك الصورة (...). سنكون نحن المجرى وتكون هي النهر الجاري والراسي على الدوام في معبرها الباقي. يقال إننا لا نسبح أبدا في مياه واحدة، قاصدين النهر في كلامنا. يمكن تمديد ذلك أيضا على الهوية (...)"¹³.

وفي أسلوب نثري أكثر قربا إلى اللغة الشعرية يقول: "الظلال التي تضيعها الغيوم على الطريق تهيم في الحقول، تهيم في حيرة هائلة. نحن نهيم أيضا. ولكن ظلال أي غيوم نحن؟ نحن نهيم"¹⁴.

إن ما ينجر عن حركة الماء في النهر هو ما ينجر عن حركة الغيوم في السماء، فالاضطراب سمة مشتركة بين الحركتين، لكن مجرى النهر وظلال الغيوم هما بمثابة انعكاس أشد اضطرابا لتلك الحركة. فالذات من هذا المنطلق ظل شديدة التغير لا تعكس في كل الأحوال صورة، وبالتالي هوية، صاحبها بل هي شفاقة

ولعوبة، كما أنها - وعلى غرار المرأة - لا تعرف الذات بنفسها ولا النفس بذاتها، وهي المسألة التي توقفنا عندها في النص الإطار حينما أشرنا إلى المقاربة الاستبطانية التي أقامها ديب بين القصيدة والمرأة والظل: "تعرف القصيدة ذاتها بذاتها، لكن ذلك لن يجديها في شيء بنفس القدر الذي لن يجدينا أمر التعرف على ذواتنا في المرأة ولا أمر التعرف على أنفسنا بذواتنا"¹⁵.

بإمكاننا أن نقول مستنتجين، على غرار ما فعل مراد يأس، إن "خلف تلك الصور المرآوية تنام انعكاسات مخاوفنا ورغباتنا وهذياننا"¹⁶ وتحمل تلك المنعكسات - في نصوص ديب - دلالة "النزول إلى أعماق الذات وإلى أعمق النقاط فيها"¹⁷، وهو ما من شأنه أن يسمو بها إلى الذات الإنسانية الحقة التي سنرى لاحقاً أنها تتأسس على قاعدة أخلاقية عند ديب.

يعكس ذلك الاضطراب والتحول اللذان يصيبان الهوية مظهراً من مظاهر البحث عن "أنا موحدة"¹⁸، وهو المظهر الذي دفع الراوي - في النص الإطار - إلى أن يجعل من نفسه طائراً يتحدث على لسان الطير ويروي رحلتها المضنية صوب ملك الطيور السيمرغ، ولم تمنعه تلك الصورة الرمزية المتخذة من وضع بطاقة هوية لنفسه لم يزد فيها أن جرد نفسه من اسم عائلي ونسب يحددانه: "إني ب.ا.ع (S.N.P) حتى وإن جهل الآخرون، الإحدى عشر، ذلك. بلا اسم عائلي. لقيط معنوه ذاك هو اسمي"¹⁹.

ورغم تلك الصورة المبهمة والمجهولة للهوية إلا أنها ستؤول إلى فقدان وتتحول إلى "هوية نافرة"²⁰ - على حد تعبير لاكان - وتكون المرأة مسرحاً لذلك الضياع: "أحدنا يغيب عن النداء. لا يظهر على الصورة. إنه أنا"²¹.

يقع تحول آخر عبر المرأة نفسها - لا يعقبه الراوي بمشهد تكميلي - حيث يحل السيمرغ، الممثل لملك الطيور عند الفرس والرمز للذات الإلهية عند الصوفيين، محل صورة الراوي المفقودة: "إنه هو. إنه أنا. إني السيمرغ"²². وفي

هذا المآل الذي اختاره ديب لذات راويه يبدو منتهجا صيغة الحسين بن منصور
الحلاج (244 هـ - 309 هـ / 858م - 922م) في قوله:

رأيت ربي بعين قلبي فقلت: من أنت؟ قال: أنت!²³

ويبدو في مشهد دنو السيمرغ من الراوي مطلعاً على بيت آخر للحلاج:

أدنيته منك حتى ظننت أنك أني²⁴

إذا كان منطلقاً في تحليل مشهد تحول الذات وضياعها في النص الإطار
منطلقاً سيميائياً سردياً، فإننا سنلاحظ أن الموضوع الذي يسعى الراوي كفاعل
(رفقة ركب الطيور) لاستهدافه والمتمثل - كما قلنا آنفاً - في البحث عن ذات
السيمرغ ما هو "في الواقع إلا ذريعة وحيزا لاستثمار القيم ومكاناً آخر يفضي إلى
توسيط العلاقة بين الفاعل وذاته"²⁵، حيث يتحول موضوع البحث في النهاية إلى
الذات الرامزة بدورها إلى شكل من أشكال "البحث الهوياتي والروحي"²⁶، فتبدو
"الذات الفاعلة (Sujet opérateur)"²⁷ فاقدة لموضوع القيمة المتمثل في الهوية
من منطلق قول غريماس (Greimas) بأن "موضوع القيمة) حيز تستثمر فيه قيم
تقترن بالذات أو تنفصل عنها"²⁸، ولا يتجلى "مشروع الذات"²⁹ القائم على الانتقال
من وضعية انفصال عن موضوع الهوية إلى وضعية اتصال به في النص الإطار
وحده، بل نلمس حضوره عبر كافة نصوص "سيمرغ" التي راح من خلالها ديب
يوجه دعوة ضمنية للرجوع إلى الذاكرة الزاخرة بالماضي الإنساني للبشرية، وعالم
الطفولة الواسع الآفاق، والفضاءات الرحبة للأدب والحلم والخيال، وهي دعوة
اكتست مظهر "المتاهة والحنين"³⁰ لما يفترض أن يكون معوضاً أو بديلاً لكل
"ذاكرة أو هوية مفقودتين"³¹ - على حد قول جاكين أرنو (Jacqueline
Arnaud) - مع احتمال حصول علاقة ترادف أو تكامل بين "عملية البحث
المدوخة عن المعنى ورحلة البحث عن الهوية"³². فلا سبيل إذن لعزل ذات ديب
المتصوفة والمتلاشية على غرار تلاشي ذات العطار في منظومته: "اغمض عينك

ثم افتحها وتلاش ثم تلاش ثم تلاش في تلك الحال الثانية، ثم امض قدما، فقد تأتي لك أن تصل إلى عالم التلاشي³³. لا سبيل لعزلها عن سياق الحنين الصوفي إلى الأصل، وعن سياق الإبداع الأدبي الذي يمثل موضع التزام وتفاني الأديب وإقدامه على "كتابة اختلافية تقول أناها الممزقة شطايا"³⁴ وتتأسس على مبدأ التلميح إلى حقيقة وجود أدب - بما في ذلك الأدب الجزائري- مميز من خلال "كلمة نأخذها، يقول ديب في آخر كتبه "لايزة" (Laëzza)، فتجعلنا من ثم حاضرين في العالم"³⁵، لكن مفارقة التضليل تبدو أمرا حتميا وهو يكتب، فيقول: "وبمجرد أن أستحوذ بالمقابل على تلك الكلمة تعترضني مفاجئة أولى، حيث تبسط لي مرآتها علما أنني عشت إلى حد الآن دون صورة عن نفسي. لكن بعد أن اكتشفت ما فيّ عليّ أن أتعرف على نفسي. أتعرف على نفسي، نتعرف على أنفسنا. فالأدب هو أولا تعلم الذات والنحن (Nous)"³⁶.

يمكن أن يكون منطلقنا أيضا في تحليل الهوية المتحولة مبنيا على "طور المرأة"³⁷ كمفهوم يجسد رمزية في "سيمرغ"، من حيث إنه يلعب دورا هاما في "تشكيل وظيفة الأنا"³⁸، ويحمل دلالة التعرف التي يحددها لاكان بـ"التحول الحاصل في الذات لدى تحملها لصورة ما"³⁹، فما وقع إذن بعد توحيد ذات الراوي وذات السيمرغ في النهاية هو "تداخل فضائي صراع متنافرين حيث تتعثر الذات في عملية البحث عن المترفع وقلعة الباطن البعيدة، وهو ما يرمز على صعيد الشكل إلى هذا (le ça)⁴⁰ الوثيق الصلة في حالة ديب بتقلب فوري لصورة الأنا وغموض "مصير الذات"⁴¹.

وينبثق عن هذا التوجه الذي سبق وأن افترضنا أنه صوفي المنشأ توجه آخر يقوم على مبدأ الانفتاح على الآخر أو بالأحرى على منطلق البحث عن الذات في الآخر، وهو ما يعكس غيرية نلمس إيمان ديب وتمسكه بها في كل ما سعى في تأكيده عبر نصوصه الكثيرة من أفكار تصب في مجرى الهوية الجمعية التي ترمز

في اعتقادنا إلى هوية إنسانية تقوم على التعددية والتكامل في الوقت ذاته. فنراه يتساءل بعمق عما يمكن أن يحول بين الضميري أنا وأنتم، فيقول: "أنا الضمير الأول للمفرد. أنا، مفرد؟ وأنتم، أنتم شخص آخر؟"⁴². ففي ذلك التساؤل تأكيد على ما تحقق في حالة المرأة من "تجليات الضعف (double) المظهرة لحقائق نفسية غير متجانسة"⁴³ مرتبطة في حالة ديب بتعلم الأنا والنحن والأنتم وغيرها من الضمائر المرادفة في مجموعها - كما رأينا آنفا - للأدب. ومن هذا المنطلق فإن ما يطرأ على الأنا من تغير، قد يكون مرحليا أو غير مرحلي، طويل المدى أو قصير المدى، سينجم عنه في النهاية رجوع إلى وضع الأصل المنبئ عند لاكان بعمل الذات المتحركة في فضاء اللغة تحركا رمزيا وطوريا، حيث "تندفع الأنا بصورة بدئية قبل أن تتجسد في جدلية التعرف على الآخر وقبل أن ترجع إليها اللغة وظيفية الذات المنوطة بها على صعيد عام"⁴⁴. فليس للذات من وجود دون الآخر، وليس للهوية من مرجعية خارج سياق الغيرية.

إن الهوية التي يريدها ديب، وإن بدت في مظهرها المتحول المستجيب لمبدأ الغيرية الذي كثر تجسيده عند أنصار ما بعد الحداثة، وإن بدت أيضا دائمة الارتباط ب"وضع الآخر"⁴⁵ وعاكسة "للفضاء الثقافي أو النفسي المغاربي"⁴⁶ على حد تعبير شارل بون، فإنها لا تنفصل، في جميع الأحوال، عن الوضع الإنساني المستجيب للتصور الحداثي القاضي بـ "التحكم المنسجم في العالم عبر أنا موحدة"⁴⁷. وما تلك الأنا الموحدة إلا "ذاتا تضيع بالقدر الذي تعثر فيه على نفسها"⁴⁸، فهي من منطلق لاكان "على استعداد دائم للاختفاء من جديد، مؤسسة بعدا قوامه الضياع"⁴⁹. وقد استطاع ديب أن يترجم تلك الخاصية التي تتبني عليها الذات الإنسانية بأن جعل من موضوع البحث عنها وتحقيقها أمرا ضروريا للوقوف بالمرصاد أمام «مجتمع اللامبالاة» الذي يسير بخطى متسارعة⁵⁰، والذي يحمل في مشروعه أفكارا مناهضة للإنسانية وملغية لهوية الإنسان.

وصفوة القول، إن ما تم رصده في "سيمرغ" من مظاهر هوية قوامها الظهور والاختفاء على أساس من الحركة والثبات لا ينبئ، في اعتقادنا، بتذبذب صورة الهوية عند ديب وتزعزعها بل ينبئ بتصور منسجم يسعى لاستكمال بناء تلك الصورة التي باشر في مشروع البحث عنها منذ أولى محاولاته الأدبية* معبرا عن تمسكه وإيمانه القوي بها في مختلف أعماله الإبداعية، والأرضية التي وضع عليها أسس ذلك البناء هي أرضية بلده الجزائر، أو بالأحرى "مكان تحدده الأول"⁵¹، ليسمو ذلك الصرح إلى مبنى شاهق يطل من على فوقه على إنسانية تهددها الصراعات المتطرفة التي توشك أن تعصف بمعالم هوية إنسانية لا طالما أثبت ديب أنها الأولى والأبقى.

• الصورة المتشظية للهوية:

تبين لنا من البداية - وبعد تتبع دلالات النص الإطار - أن رحلة البحث عن الذات التي أرادها ديب تقف كوجه نقيض لرحلة البحث عن الخلود التي أقدم عليها إنسان اليوم متحديا فيها الموت والقدر على حد سواء. وقد تعزز هذا الوجه الثاني المرفوض من خلال نصوص أخرى راحت تسائل ما يبدو واضحا للعيان ومأخوذا من الحياة اليومية للإنسان و"تضع تحت عدسة عينها"⁵² مسألة الإقصاء في كل تجلياتها ومظاهر نشأتها وتطورها، وتسلط الضوء على نقاط الفراغ التي بات ينظر إليها نظرة لا فائدة ترجى من ورائها، وهي النقاط التي فضل ديب محاورتها فراح "يناقش ويحلل ويعطي رأيه ويذهب بعيدا في مساءلة"⁵³ العنصرية والإرهاب والعولمة والافتراضية والاستتساخ، وكلها مظاهر وأعراض تستجيب لـ "مبدأ السلطة والوصاية والهيمنة: أي ما يمكن تسميته بمبدأ الاضطهاد (le principe paranoïde)"⁵⁴ القائم على انعدام الثقة بين الناس والاعتزاز المفرط بالذات عند بعضهم، وهو ما يترجم عند ديب بالأنانية التي لا يرى أنها حكر على الفرد وحده بل "ثمة وجود لأنانية الدول على غرار أنانية الأفراد"⁵⁵، ويترجم كذلك

بالفوقية التي دفعت النازيين - على حد قوله في "لايزة" - إلى "ارتكاب الجرائم المعروفة لا لأنهم كانوا ألمانين بل لأنهم كانوا بشرًا كغيرهم من البشر وأنهم أيضا عدوا أنفسهم، بلا شك، فوق كل البشر"⁵⁶.

سينصب اهتمامنا على تلك الأعراض المشخصة لداء الإقصاء على اعتبار ما تحمله من مشروع مناهض للإنسانية يتأسس على فكرة "استحقاق الإنسان وتهشيمه"⁵⁷ ويتولد عن ذلك التهشيم تهشيم للذات، وهو ما يضعنا إزاء صورة مضطربة لهوية ما بعد حدثية، يرفضها ديب، قائمة على "التشتت والتشطي والشعور بال فقدان"⁵⁸. ويمكننا أن نتحقق من قيام منطق الإقصاء على إلغاء ذات الآخر وهويته:

- تتحدد العنصرية، في "سيمرغ"، باعتبارها شكلا من أشكال ذلك الإقصاء، كـ "منبر للترفع والتفوق"⁵⁹ اللذين تفعلهما إرادة التسلط "التي تمنح كل فرد إمكانية التحول إلى ذات حاكمة والخروج من وضع الحياد"⁶⁰، ولا يقف الأمر عند هذا الحد بل يبلغ نقطة التطرف التي تجعل ذلك الفرد العنصري - على حد قول ألان تورين - "مسكونا بهويته ولا يرى في الآخرين إلا ما يجعلهم مختلفين عنه (...). أما الآخر فيبدو بسهولة وكأنه يمثل تهديدا مطلقا: إما هو وإما أنا"⁶¹، وهو ما يستلزم منطق الموت الذي تصبح العنصرية بمقتضاه "آلة حرب من بين آلات الموت وأدواتها"⁶²، وتستهدف من ورائه "الإطاحة بالذات"⁶³ وإشعار الآخر بفقده لهوية يتحدد وفقها.

- أما الإرهاب فهو صورة متقدمة من صور العنف التي صاغها ديب في قوله: "أحمل القتل في نفسي"⁶⁴، وهي صورة تعكس بصدق فكرة "العنف الذاتي"⁶⁵ التي أصبح الفرد ما بعد الحداثي يجسدها في سلوكه اليومي، فتجتاز الذات "عتبة الاضطهاد"⁶⁶، على حد تعبير كريستيفا، منمية روح "التعصب الإثني واللاتسامح الديني"⁶⁷، وهي أعراض تشخص داء العنصرية ووباء الإرهاب الذي ينذر في

نزعتة الأصولية عند ديب ب "سرطان يدمر مجتمعا أو فريقا أو عائلة" ⁶⁸. فثمة رجوع إلى "الهوية العرقية" ⁶⁹ أو إلى "نواة مغلقة للهوية" ⁷⁰، بحسب تعبير لوهمان، وهو ما يفضي بشكل أو بآخر إلى "تعصب الهوية" ⁷¹ المنبني على حساب هوية الآخر.

- إلى جانب العنصرية والإرهاب تأتي العولمة كشكل آخر من أشكال الاضطهاد، وهو اضطهاد غايته الهيمنة ومردة السعي الحثيث للإنسان، أو حلمه - على حد قول ديب - في أن "يصوغ (العالم والحياة) في معادلة واحدة نهائية" ⁷²، فالاضطهاد في هذه الحالة يرمي إلى "إيقاف حركية الذات" ⁷³ وجعلها تسير في صالح ذات متسلطة تعمل على إرساء قواعد "إيديولوجية الإحراز (idéologie de l'obtention)" ⁷⁴ وفرضها فرضا يقوم على "فكرة الغلبة الهادفة إلى قهر الذات «الضعيفة»" ⁷⁵ وإقصائها من دائرة الهوية المركزية التي تنحصر في الدائرة الأورو-أمريكية.

ينتقد ديب العولمة كشكل من "أشكال الهيمنة في العقلنة الحديثة" ⁷⁶ مكذبا مزاعمها الوهمية ومنندا بنزعتها الاحتلالية ومقاصدها التي لا تعدو أن تكون "مقاصد أمبريالية" ⁷⁷. فهو في نقده هذا أقرب ما يكون إلى الرؤية ما بعد الحداثية في رفضها للعقلنة الحديثة و"دعوتها للتعدد ومقنتها المزعوم للشمولية" ⁷⁸، كما يبدو نقده مؤسسا على استلزام غيدنس (Giddens) المؤكد على أن "الحداثة هي من يعولم" ⁷⁹، وكأن به يذهب مذهب تورين في قوله: "إن الحداثة لم تعد قوة للتحرير ولكنها صارت مصدرا للاستبعاد وللاضطهاد والقمع" ⁸⁰، مما يجعل منها "وعيا إيديولوجيا مراوغا مخاتلا" ⁸¹ لا علاقة له بمسألة إلحاق الشرق بالغرب والجنوب بالشمال إلا في حدود ثنائية "السيد والعبد الهيجيلية" ⁸². وهي المسألة التي لمسنا حضورها عند ديب في كل ما سعى لاستحضاره من رموز في نصوصه المختلفة

هادفة لإيصال هوية الشرق بهوية الغرب عبر رباط الإنسانية الذي بات من الضروري الاعتصام به.

- ومن بين أشكال التطرف الأخرى التي عالجها ديب تبدو الافتراضية وجها مكملا للعولمة، أو بالأحرى مظهرا من مظاهرها البارزة المنذرة بـ "نقص التواصل بين الناس بسبب تطور وسائل الاتصال"⁸³، وهي المفارقة التي تتجلى علاماتها في "النقلة المجتمعية الحادة التي أحدثتها تكنولوجيات المعلومات"⁸⁴، حيث وقعت من خلال العالم الافتراضي محاولة في "الخروج عن الكلام"⁸⁵ لاستبداله بلغة العولمة التي تشعنا بـ "افتقاد الإنسانية لإنسانيتها"⁸⁶، وهو ما يعني على وجه الاستلزام "محاولة في الخروج عن دلالة (الذات والتمثيل والخطاب والمعنى) واستبدالها بما هو شيء آخر فيها: الإنتاج باعتباره إشارة"⁸⁷، أي أن الذات المقهورة ستذعن للمادة وتنتقاد وراء كل ما لا يعدو أن يكون "تمثيلا سمعيا أو بصريا"⁸⁸، وهو ما يوافق - على حد تعبير كريستيفا - "عملية اتصال لا نية تواصل فيها ولا تبادل أفكار"⁸⁹. فالخروج عن الكلام يستلزم خروجا عن الذات وعن الآخر وإحداث قطيعة إنسانية.

يبدو رفض ديب الواضح لـ "هوية الإنسان أو اللإنسان الجديد"⁹⁰ التي جاءت لتطبع مرحلة "ما بعد الحداثة وما بعد الفلسفة وما بعد الحضارة وما بعد التاريخ وما بعد الإنسان"⁹¹، على حد تعبير سامي أدهم، وهي الهوية التي مثل لها بصورة الآلة الناطقة التي راحت تتحكم في الإنسان وتمارس إقصاء عليه، أي انه راح يظهر مدى "ازدياد سطوة الآلة"⁹² على الإنسان الذي أراد أن يصنع حقيقته عبر تلك الآلة وأن يتحدى قدره من خلال هوية جديدة تضع له "أنا أفكر جديدة"⁹³، وهو ما أبعد كل البعد عن ذاته وحال بينه وبين الآخر.

- يأتي الاستتساخ كأبشع صور الإقصاء التي يمارسها الإنسان على ذاته وهويته، من منطلق حديث ديب عن كائن آخر من خلق الإنسان الغربي هو

المستسخ الذي سيكون "منتوجا لا كائنا بشريا"⁹⁴، وهو ما يؤذن بعصر "صناعة الوهم"⁹⁵ وينذر بعهد "يزداد (فيه) اغتراب الإنسان"⁹⁶ عن الإنسان، وتحل الرذيلة فيه محل الفضيلة وتكون الحصيلة انتصار "المظهر الخداع أكثر على الإنسانية"⁹⁷، وغياب كل ما يشعر الإنسان بإنسانيته. إن في رفض ديب لهذا التصور ما بعد الحداثي الذي يستمد مرجعيته من "مجتمع الموجة الثالثة"⁹⁸ رفضا لتصور يتأسس مشروعه على "المواجهة مع الذات"⁹⁹ يفضي إلى "دوامه التيه والضياع"¹⁰⁰ التي تحقّق بالهوية الإنسانية من كل صوب.

يرفض ديب إذن الصورة المتشظية والمتزيرة للهوية التي أفرزتها التيارات الفكرية المعاصرة المتصارعة والمتناحرة فيما بينها والتي تسعى عبر أداة العلم "لتحطيم احترام الإنسان القديم لذاته"¹⁰¹، على حد تعبير نيتشه (Nietzsche)، ويبدو في رفضه محذرا من مغبة الوقوع في "فخ الهوية"¹⁰² الذي يوهم بأحقية "الاكتشاف الجديد للذات"¹⁰³ تحت شعارات العرقية والأصولية والإقليمية والقبلية التي تغذيها حرية لا حدود لها.

كما يصلح الرفض في أن يؤكد إيمان ديب بـ "هوية متعددة"¹⁰⁴ تقوم على مبدأ الانسجام الحداثي الذي يتأسس في جملة نصوص "سيمرغ" على عناصر "هوية تبنى ويعاد بناؤها في سياق تفاعلي كائن بين الذوات بعضها البعض"¹⁰⁵، أي هوية متشكلة في العلاقة الرابطة بين الذات والغيرية.

والغيرية، كأكثر العناصر استثمارا عند ما بعد الحداثيين، تتحدد أيضا عند ديب في كل ما سعى لاختلاقه في "سيمرغ" من جو ملؤه التواصل و"الحديث عن الآخر الذي يعني الحديث عن الذات"¹⁰⁶، وقد قدم لنا صورة عنها في آخر كتبه، في قوله: "... آخر يشعركم بغيريتكم بدئا بهويتكم الخاصة. آخر يعلمكم من تكونوا ومن لا تكونوا"¹⁰⁷. أي أنها علاقة قائمة على مبدأ الانفتاح المتجسد عنده عبر "الرحلات والتبادلات المتضاعفة التي تقرب اليوم الناس من بعضهم البعض"¹⁰⁸.

يصلح أن نقول مستنتجين، على غرار ما أكدت أوريكيوني (Orecchioni)، بأن الهوية عند ديب "بناء تفاعلي دائم نركبه بتركيبنا مع الغير"¹⁰⁹ وهي، على غرار الأدب، لا تعترف بالحدود الضيقة والواسعة بين أفراد المجتمع الإنساني وتسعى "لإعادة جمع ما تفرق، لكن دون التخلي عن الحنين إلى وحدة العالم الضائعة"¹¹⁰، والتنازل عن حلم تصالح الإنسانية مع ذاتها.

استرعى موضوع الهوية اهتمام ديب، ولن نبالغ إن نحن قلنا إنه من أبرز مواضيع الكتابة عنده، فيمكن الحديث عن كتابة الهوية وهوية الكتابة في إطار غيرية سمت رايتها منذ لحظة استعراض الكاتب في النص الإطار لوقائع رحلة البحث عن ذاته وعن ذات الآخر، عبر رحلة الكتابة المضنية التي تواصلت عبر نصوص "شبيهة بالسماء من حيث تكتلها ومن حيث استوائها وعمقها في الوقت ذاته، ومن حيث نعومتها ولا محدوديتها وافتقارها إلى معالم"¹¹¹. يمكن اتخاذ تلك الكتابة المضنية والمفتقرة إلى معالم موضوع بحث وتساؤل جادين.

*- يعد "سيمرغ" واحد من آخر الأعمال التي نشرها محمد ديب، وكان ذلك أربعة أشهر قبل وفاته (جانفي 2003).

1- سليمان الديراني، ما بعد الحداثة: مجتمع جديد أم خطاب مستجد، 16 مارس 2008
www.althakerah.net

2- فريدة النقاش، قضايا ما بعد الحداثة في الأدب والنقد، 16 مارس 2008
www.althakerah.net

3- Ibid

4 -Mohammed Dib, Simorgh, Éditions Albin Michel, Paris, 2003, p. 32

5- Ibid, p. 72

6- Ibid

7- ياسين الحاج صالح، ضمائر الحداثة المنفصلة والمتصلة و... المعاقبة، 17 مارس 2007،
www.dcters.org

8- ألان تورين، نقد الحداثة، ترجمة أنور مغيث، المجلس الأعلى للثقافة، الدار البيضاء،
1997، ص. 39

9- Naget Khadda, Mohammed Dib- cette intempesive voix recluse,
ÉDISUD, Aix-En- Provence , 2003, p. 101 .

* - حوار جمع ع. حميدة مع ديب على هامش اجتماع تخللته شهادات متقنين ومبدعين حول
ما يحدث بالجزائر"، وكان ذلك في مارس 1994، بمقر فناك (FNAC) بباريس.

10- ع. حميدة، «محمد ديب»، جريدة "اليوم"، العدد 1294، الجزائر، الأحد 04 ماي 2003،
ص. 24

11- Charles Bonn, Lecture présente de Mohammed Dib, ENAL, Alger,
1988, p. 16

12- Axel Honneth, La Société du mépris – vers une nouvelle théorie
critique, Éditions de la Découverte, Paris,
2006, p. 24

13- Simorgh, p. 75

14- Ibid, p. 76

15- Mohammed Dib, op. cit., p. 22

16- Mourad Yelles, Les miroirs de Janus – littératures orales et écritures
postcoloniales (Maghreb – Caraïbes), OPU, Alger, 2002, p. 20

17-Carine Goyon, Étude littéraire de L'Infante Maure de Mohammed Dib, Mémoire de maîtrise, Université Lumière- Lyon2, Faculté des lettres ; sciences du langage et arts, septembre 2003, p. 109

18- Axel Honneth, La Société du mépris – vers une nouvelle théorie critique, p. 32

19- Simorgh, p. 15

20- Jacques Lacan, Écrits 1, Éditions du Seuil, Paris, 1966, p. 94

21- Mohammed Dib, op. cit., p. 19.

22- Ibid, p. 20

23- ديوان الحلاج، تقديم وضبط وشرح صلاح الدين الهواري، ط1، دار مكتبة الهلال، بيروت، 2005، ص. 36

24- م.ن، ص. 91

25- A.J.Greimas, Du Sens II- Essais Sémiotiques, Éditions du Seuil, Paris, 1983, p. 21

26- Groupe d'auteurs, Littératures Francophones du monde arabe, Éditions Nattan, Paris, 1994, p. 46

27- A.J.Greimas, op. cit., p. 21

28- A.J.Greimas, J. Courtés, Sémiotique, Dictionnaire raisonné de la théorie du Langage, Hachette, Paris, 1979, p. 259

29- A.J.Greimas, Du Sens II- Essais Sémiotiques, p. 23.

30- Groupe d'auteurs, op.cit., p. 46

31- Jacqueline Arnaud, La littérature Maghrébine de Langue Française – tome I – Origines et perspectives, Publisud, France, 1986, p.p. 246-247

32- Groupe d'auteurs, op.cit., p. 47

33- فريد الدين العطار، منطق الطير، دراسة وترجمة بديع محمد جمعة، ط2، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2002، ص 110.

46- جمال فوغالي، «ترجمة فصل من شجرة الكلام المبدع الجزائري محمد ديب»، مجلة "الثقافة"، العدد 05، المكتبة الوطنية الجزائرية، الجزائر، 2004، ص34.

35 - Mohammed Dib, Laëzza, Éditions Albin Michel, Paris, 2006 p. 144

36 - Ibid, p. 144

37 - Jacques Lacan, Écrits 1, p. 89

38 - Ibid

39 - Ibid, p. 90

40 - Ibid, p. 94

41 - Ibid, p. 91

- 42 - Simorgh, p. 102
- 43 - Jacques Lacan, op.cit., p. 92
- 44 - Jacques Lacan, Écrits1, p. 90
- 45 - Charles Bonn et Y. Baumstimuler, Psychanalyse et texte littéraire au Maghreb, L'Harmattan, Paris, 1991, p. 11
- 46 - Ibid, p. 17
- 47- Axel Honneth, La Société du mépris – vers une nouvelle théorie critique, p. 32
- 48 - Jacques Lacan, Les quatre concepts de la Psychanalyse, Paris, Éditions du Seuil, 1973, p.p. 34-35
- 49 - Ibid, p. 33
- 50 - Axel Honneth, op.cit., p. 34
- *- دخل ديب إلى مجال الأدب بقصيدة نشرها عام 1947 تحت عنوان "تجمة" النسر الواقع- فيغا وتبدو تلك القصيدة راسمة لمشروع برنامج جمالي وثقافي لما سيشكل أساسا لعمله في المستقبل،و يمكننا قراءة في القصيدة ذاتها تصورا أوليا لموضوع البحث عن الذات ولتوجه رمزي وصوفي وحضور شعري سيتكرر توظيفه في مختلف أعماله الأدبية.
- 51- Groupe d'auteurs, Littératures Francophones du monde arabe, p. 17
- 52- Michel de Certeau, L'invention du Quotidien, Arts de Faire, Éditions Gallimard, Collection « Folio », Paris, 1980, p. 156
- 53- جمال فوغالي، ترجمة فصل من شجرة الكلام المبدع الجزائري محمد ديب، ص. 46
- 54 - Julia Kristeva, La révolution du langage poétique, Paris, Le Seuil, 1974, p. 400
- 55 - Simorgh, p. 88
- 56 - Mohammed Dib, Laëzza, p. 109
- 57- فريدة النقاش، قضايا ما بعد الحداثة في الأدب والنقد، 16 مارس 2008
- 58- نادية صادق العلي، مدخل لما بعد الحداثة، . 16 مارس 2008
- 59 - Simorgh, p. 40
- 60 - Julia Kristeva, La révolution du langage poétique, p. 400
- 61- ألان تورين، في الحداثة وما بعدها: مصائر الحداثة، ترجمة قاسم مقداد ومحمود موعد 16 مارس 2008.
- 62- Mohammed Dib, op.cit., p. 40
- 63- ألان تورين، نقد الحداثة، ترجمة أنور مغيث، ص. 93
- 64- Mohammed Dib, op. cit., p. 65

-
- 65- عبد الله الغدامي، آفاق ما بعد الحداثة ، www.althakerah.net. ، 16 مارس 2008
- 66- Julia Kristeva, La révolution du langage poétique, p. 401
- 67- نادية صادق العلي، مدخل لما بعد الحداثة، 16 مارس 2008
- 68- Simorgh, p. 96
- 69- ألان تورين، في الحداثة وما بعدها: مصائر الحداثة، ترجمة قاسم مقداد ومحمود موعد
16 مارس 2008
- 70- سليمان الديراني، ما بعد الحداثة: مجتمع جديد أم خطاب مستجد، . 16 مارس 2008
- 71 - J.F.Dortier, «L'individu dispersé et ses identités multiples», In " Sciences Humaines", n°37, France, 1994, p. 18
- 72 - Mohammed Dib, op.cit., p. 77
- 73 - Julia Kristeva, La révolution du langage poétique, p. 400
- 74- André Helbo, L'enjeu du discours- Lecture de Sartre, Éditions Complexe, PUF , Bruxelles, 1978, p. 74
- 75 - Ibid, p. 74
- 76- عبد العالي معزوز، إشكالية العقل والعقلنة في الحداثة الفلسفية، . 16 مارس 2008
- 77- Mohammed Dib, Laëzza, p. 98
- 78- فريدة النقاش، قضايا ما بعد الحداثة في الأدب والنقد، 16 مارس 2008
- 79 - Anthony Giddens, The consequence of Modernity, California : Stand Ford University Press, 1990, p. 63
- 80- عبد الله الغدامي، آفاق ما بعد الحداثة ، www.althakerah.net. ، 16 مارس 2008
- 81- طيب تيزيني، من الحداثة إلى ما بعد الحداثة: إشكالية ونقد ، 16 مارس 2008
- 82 - Ibid
- 83 - Mohammed Dib, op.cit., p. 119
- 84- نبيل علي، العرب في مواجهة التحدي المعلوماتي، 16 مارس 2008
- 85- Julia Kristeva, Recherches pour une sémanalyse, Paris, Le Seuil, 1969, p. 33
- 86 - Simorgh, p. 67
- 87- Julia Kristeva, op.cit., p. 31
- 88 - Ibid, p. 38
- 89 - Julia Kristeva, op.cit., p. 43
- 90 - سامي أدهم، الفلسفة. الصنعة. المعلوماتية. السبيرنتيقا. الذكاء الصناعي، 16 مارس 2008
- 91- المرجع نفسه.

92 - نبيل علي، العرب في مواجهة التحدي المعلوماتي، 16 مارس 2008

93 - سامي أدهم، م.س

94 - Simorgh, p. 86

95- نبيل علي، م.س

96 - م.ن

97- Mohammed Dib, Comme un bruit d'abeilles, Édition Albin Michel, Paris, 2001, p. 97

98 - نبيل علي، م.س

99 - نايف العجلوني، الحداثة والحداثة، www.althakerah.net، 16 مارس 2008

100 - Ibid.

101- Friedrich Nietzsche, Généalogie de la morale, texte et variantes établis par Giorgio Colli et Mazzino Montin, Traduction I. Hildenbrand et J. Gratien, Éditions Gallimard, Paris, 1971, p. 25

102- ألان تورين، نقد الحداثة، ترجمة أنور مغيث، ص. 390

103- م. ن، ص. 393

104 - Simorgh, p. 215

105 - Catherine Kerbrat – Orecchioni, Le discours en interaction, Édition Armand Colin, Paris, 2005, p.p. 156-157

106 - Mourad Yelles, Les miroirs de Janus – littératures orales et écritures postcoloniales (Maghreb – Caraïbes), p. 19

107 - Mohammed Dib, Laëzza, p. 115

108 - La dernière interview de Dib, In "Le Matin", n°3412, Alger, 08 mai 2003, p. 06

109 - Catherine Kerbrat – Orecchioni, op. cit., p. 160

110 - ألان تورين، في الحداثة وما بعدها: مصائر الحداثة، ترجمة قاسم مقداد ومحمود موعد -

16 مارس 2008

111- Roland Barthes, S/Z, Éditions Le Seuil, coll «Point Essais», Paris, 1976, p. 20